قد دفنا الماضي البغيض

للأستاذ أديب عباسي

هبط البلدة عبد الكريم البرجي هو وزوجته الشابة وبنوه الصغار : حسين ومحمود ووصفي ، وأخذوا لهم مسكناً غرفة مفردة في حي من أحياء البلدة المتوسطة ، وعزموا أن يعيشوا عيشة هادئة مستقرة يستريحون معها من الضرب في الآفاق إلى آخر العمر . ولكن عكر عليهم هذه الآمال وشرد تلك الأحلام ما لاحظه عبد الكريم وزوجته صفية من انقباض السكان عنهم انقباضاً ملحوظاً منذ حلوا بينهم ، ثم ماجاء بعده من استرابة وحيطة تبدوان في وضوح وصراحة على جميع الأجوار . ولقد حاول الصغار في اليومين الأولين أن يختلطوا بصبية الحي ، ولكنهم كانوا في كل محاولة يجدون أنفسهم وحيدين حيث وقفوا ، وينظرون فاذا الصبية عادوا وعقدوا لهم بعيداً حلقة أخرى يستأنفون فيها ألعابهم . ولقد فهم الاخوان الثلاثة مما رأوا من سلوك صغار الحي ومما فسره لهم أبواهم أن وجودهم بينهم غير مرغوب فيه ، وأن عليهم أن يكفوا عن لحاقهم ، ويكتفوا باللعب بعضهم مع بعض ، فأذعنوا لذلك كارهين

ولم يجد عبد الكريم البرجي صعوبة في تبين أسباب هذا الانقباض والاسترابة في سكان الحي . فقد اعتاد أن يرى مثل ذلك حيثما حل المعمور نفر من أبناء جنسه ، بل هو يعلم أنه أضحى من الحيطة اللازمة والحرص المحتوم أن يرهف الناس الأسماع ويحدوا الأبصار ويضاعفوا الانتباه كلما لاح لهم النوري أو النورية من بعيد أو من قريب ، ويعلم أن ربة الدار لا تحسب في الحريصات اللائي لا يتغفلن بسهولة إذا لم تجر كل مساء تفتيشاً دقيقاً على محتويات البيت كلما هبط البلدة نفر من النَّور

أدرك عبد الكريم إذن أسباب انقباض السكان واستريابهم ، ولم يجد أول الأمر حيلة يدفع بها أسباب الريب سوى أن يعتكف هو وذووه في البيت ما أمكنهم الاعتكاف . وقد رأى عبد الكريم يوماً أن ينكر الأصل الذي ينتمون إليه فلم يفلح . فلقد كان في سيمائهم جميعاً ومعارفهم ونبرات أصواتهم وحركاتهم وسكناتهم ما لا يجدي معه إنكار ولا تنكر ؛ هذا عدا ما بوغت الصغار مرة أو مرتين يتراطنون بلسانهم الخاص برغم ماحذرهم أبواهم ونهياهم عنه أشد التحذير والنهي

وطال انتظار العائلة أن تخف الريبة والتحوط فيستطيعوا أن يتصلوا بالسكان ويواصلوهم ، ولا سيما أنهم جاءوا يطلبون رزقهم عن طريق العمل الشريف لا من طريق التطفل والتسول والسرقة كما هو دأب أبناء جنسهم . فصمموا أخيراً على تحدي ارتياب الناس وخرجوا من مسكنهم وبرزوا للناس وواجهوهم مواجهة في الأزقة والشوارع وفي سوق البلدة والساحات العامة دون استخذاء ولا وجل . ولقد كان لذلك أثره المحتوم ، فخفيت إلى حد بعيد

نظرات الارتياب وخف التهامس بين الناس كلما مروا قريباً منهم ، وثاب إلى ربات الدور بعض اطمئنانهن فاستطاعت صفية أن تلقى عليهن التحية وتقف دقيقة أو دقيقتين تحادثهن دون أن ينفرن وينفرط عقدهن أو يتحسسن حليهن خشية أن تطير من حيث لا يحتسبن أن تطير

وزاد اطمئنان السكان حينما رأوا عبد الكريم يعمد إلى غربال كبير ويملأه بالفواكه والخضر والسُحارة المشوية [1] والحمص المسلوق وخلافها مما قد يتسع له هذا الغربال ، ويحمله على رأسه ويدور على المساكن من الصباح إلى المساء يبيع ما يستطيع بيعه ثم يعود إلى منزله لا يبرحه إلا فى صباح اليوم التالى . فلقد أقنعهم هذا بأن عبد الكريم عازم عزماً أكيداً أن يعيش من كد يده لا مما يستطيع أن يناله بالسرقة والتسول

هذا وقد برزت عناصر الطيبة والأريحية فى البلدة حينما رأوا عبد الكريم يخرج على تقاليد الجنس ويصطنع هذا الأسلوب من الحياة المستقرة ، ويعيش مما يحصّله بكد يمينه وعرق جبينه ، وغدت ربات البيوت لا يشترين من السوق شيئاً يستطعن شراءه منه ، بل غدون يوصينه بأشياء وحاجات معينة يأتينهن بها من السوق وينال عليها ربحاً يسيراً

وتحسنت أحوال العائلة وصار عبد الكريم يستطيع أن يتخذ له دكاناً يستقر فيه ويعرض للناس سلعه ، ولكنه آثر أن يظل بائعاً متجولا ، وكأنه بذلك يلبى بطريقة محوّلة مصغرة ما غرسته الأجيال فى دمه ودافقه فى أعصابه من حب التجوال والضرب فى الآفاق ، ولكن حرمته إياه حياة الاستقرار التى اصطنعها أخيراً

وأراد عبد الكريم أخيراً أن يكتسب تقدير الناس واحترامهم بعد أن أزال من نفوسهم كل أثر للريبة وسوء الظن ، فأدخل بنيه الثلاثة مدرسة البلدة يتلقون مبادىء القراءة والكتابة والحساب والتركية كغيرهم من أبناء البلدة

وبدى أبناء عبد الكريم نشاطاً وجلداً فى الدرس ، فيكونون فى طليعة لداتهم طيلة السنوات التى قضوها فى مدرسة البلدة . ويزور المدرسة فى آخر العام مفتش معارف الولاية وهو رجل تركى ، ويجتلب انتباهه أبناء عبد الكريم بسيمائهم وقسماتهم الخاصة ، فيسألهم فى بعض ما تعلموه ويجيبونه أجوبة تسره ، فيسأل عنهم . وحينما يخبرونه من أبوهم وكيف آثر حياة الاستقرار على حياة التطويف والانتقال تستولى عليه الدهشة والاعجاب ويبعث وراء أبيهم ، ويحضر هذا ويسأله المفتش لماذا آثر حياة الاستقرار دون أبناء جنسه ولماذا هو يبعث أبناءه إلى المدرسة ؟ فيجيب جواباً موفقاً إذ يقول: « نحن يا سعادة البك نرغب أن نكون خداماً نافعين للدولة إذ نختار حياة الإقامة والاستقرار ، ونعلم الأبناء ليصبحوا قادرين على خدمة الدولة الخدمة الصالحة المفروضة على كل عماني أمين » ويُسرّ المفتش سروراً كبيراً بهذا الجواب ويقول: « عفارم عفارم عبد الكريم ! إننا سوف نرسل بنيك على نفقة الدولة إلى المدرسة التجهيزية ليكونوا خداماً صالحين للدولة كما ترغب »

ولم يستطع عبد الكريم أن يجيب على هذا

(١) السحارة فصيح « المعلاق » العامية

الانعام الكبير إلا بالانهيال على يدى المفتش يقبلهما بشدة ودموع الفرح والغبطة تفيض بها أجفانه وتمسح منهمرة على يدى المفتش المنعم

***

أدخل أبناء عبد الكريم البرجى المدرسة التجهيزية كما وعد المفتش أباهم ، ولم يفتر لهم همّ أو يخبو سعي أول ما دخلوا المعهد ، فكانوا أمثلة جيدة فى صدق العمل وحسن الاجتهاد ، ولكن الانتقال من بيئة القرية المحدودة إلى محيط المدينة الصاخب بدون تدرج فى هذا الانتقال أو تمهيد له يكون له غالباً مثل نتيجة الانتقال من المحيط المظلم إلى المحيط الشديد الاضاءة ، فتعشى الأبصار وتزوغ الأنظار أمداً يطول أو يقصر حسب استعداد الأشخاص لسرعة التكيف والتحول السليم من حال إلى حال . ومن هنا لم يلبث أبناء عبد الكريم إلا شطراً يسيراً من العام حتى أدركوا الفارق الكبير بين حياة القرية ومتعها الضئيلة التافهة ، وبين ما تتكشف عنه حياة المدينة كل يوم من متع آسرة ولذائذ مغرية . ولم يكن من حياة البلدة ونماذج اللهو فيها — إن صح أن ينسب إليها اللهو — ما يستطيع أن يتهداه أبناء عبد الكريم فيكون لهم جسراً ينتقلون عليه آمنين من عُدْوة إلى أخرى من عدوات الحياة . لم يكن لهم شيء من الخبرة السابقة والقدرة على تمييز سليم اللهو من الموبق ، فكان لذلك أثره المحتوم فى نتائج عملهم عند نهاية العام ، فرسب محمود ووصفي رسوباً شنيعاً ، ونجح حسين نجاحاً لعله كان أعود إلى شعور الاشفاق فى صدور المدرسين منه إلى جهد صادق من حسين وتقدير عادل لنتائج عمله . فقد كان في سمت حسين المستكين وإحدى العاهات اللازمة له ورسوب أخويه رسوباً شنيعاً ماجعلهم يشفقون عليه ويعاملونه معاملة لينة ، ولا سيما انه كان أقل اخوانه انصرافاً عن الدرس إلى اللهو والاستهتار

وأرسلت النتائج المدرسية للاخوان الثلاثة إلى مفتش المعارف فقرر فصل محمود ووصفى وإبقاء حسين . وبلغت عبد الكريم نتائج بنيه تلك وما قرر المفتش حيالها ، فأقامه ذلك وأقعده ، ولم يقر له قرار حتى ذهب يبغي مقابلة المفتش لعله يستعطفه ويصرفه عما دبر لابنيه الفاشلين ، ولكن المفتش أبى أن يقابله ، فلقد أحنقه أن يرى ثقته واختياره يقعان على هم فاشلة ، واستعداد مزيف ؛ ولكن الأب لم ييأس ولم يفت فى عضده أن منع الدخول على المفتش فى مكتبه ، فترصد له فى الشارع المؤدى إلى بيته ، وحالما لمحه يخرج من المكتب يبغى المنزل أقبل راكضاً من بعيد ، وأكب على يديه ورجليه وما زال يبكى ويتحب ويستغفر لبنيه إلى أن رق له ووعده بأن يعيد بنيه جميعاً إلى المدرسة ليجربهم سنة أخرى . فمضى عبد الكريم ودموع الحزن والشكر تبلل وجهه ، ودعا للمفتش أحر الدعاء وعاد وعلى وجهه كل سمات النصر الذليل والنجاح الضارع

وقبل أن يعود أبناء عبد الكريم إلى المدرسة فى العام الجديد استدعاهم المفتش إلى مكتبه وأنبهم تأنيباً شديداً مريراً على تقصيرهم وسيرتهم المريبة ، وأخذ عليهم المواثيق فى أن يقلعوا عن حياة اللهو والاستهتار وينكبوا على عملهم المدرسى وينصرفوا

إليه عن كل ما عداه ... وخرجوا من لدنه وفى سماتهم وخطواتهم كل دلائل الذلة والضراعة والانفراج بعد حساب عسير ورهبة

عاد الإخوة الثلاثة إلى المدرسة التجهيزية ، وكأن نصائح المفتش أو تهديده ثم ما يكون عادة من رد الفعل القوى لكل فعل قوى ، قد أثابت إليهم بعض عزيمتهم والعازب من رشدهم ، فأقبلوا على دروسهم إقبالاً إن لم يحقق لهم التبريز فقد جنبهم الفشل . وظل ذاك دأبهم إلى أن خرجوا من المدرسة بعد بضعة أعوام يحملون شهادتها ويحملون فى الوقت عينه شيئاً غير يسير من سلف المعرفة الناقصة وغرور العلم الفج . هذا إلى ذكريات لوقائع ومغامرات عديدة ما فتئوا يوماً يباهون بها ويقولون : « لقد كنا كالحيتان فى البحار تفتح أفواهها لتستقبل جميع أنواع السمك بلا تفريق بينها ثم لا تجد معدها مع ذلك صعوبة فى هضمها جميعاً وتمثيلها ! »

وقد استقبل أهل البلدة أبناء البرجى استقبالاً حسناً وطفقوا يهنئون أبويهم أحر التهنئة ويتمنون لهم أحسن المستقبل وأفضل العمل . وكأن الإخوان الثلاثة فهموا من إقبال أهل البلدة على تهنئتهم والاستبشار بمستقبلهم أنهم جاءوا يقرون لهم بالفضل المطلق ويبايعونهم على إمارة العلم والمعرفة فأدار ذلك رؤوسهم وضاعف غرورهم وصلفهم إلى حد لا يطاق . وقد احتملهم أهل البلدة أول الأمر إذ ظنوا أنها نشوة النجاح لا تلبث أن تزول ويحل محلها الاتزان والتقدير الصحيح للأمور ، ولكنهم لاحظوا أن أبناء البرجى يمضون فى طريق الغرور والدعوى إلى حد الاستهتار بهم والاحتقار الشديد لهم ، فثارت ثائرتهم وأقبلوا يسلقونهم بألسنة حداد ويردون على استهتارهم واحتقارهم إياهم باستهتار واحتقار أشد . ولكن الغريب أن ذلك لم يوقفهم عند حد من الغرور والاستهتار ، فكأنهم أمنوا على أنفسهم من ناحية علمهم ومعرفتهم ، فغدا لا يهمهم أن يهاجموا من أى نواحى الهجوم . وقد أغاظ هذا الموقف غير المبالى أهل البلدة وأحفظهم ، فأداروا رؤوسهم هنا وهناك يلتمسون ناحية ضعيفة فى هؤلاء المغرورين ، فينفذون إلى مكامن الغرور فيهم ، فيقتلونه فيهم أو يقتلونهم به . وكما ينزل الوحى فجأة تنبهوا فجأة إلى أن الاخوة من ذلك الجنس الذى يضرب المثل به فى الحقارة وهوان الشأن والحطة . ولم ترحمهم البلدة الموتورة فى كرامتها ، فانتشرت لفظة « النوَر » ومشتقاتها فى طول البلدة وعرضها وغدت على كل لسان ؛ وصرت حيثما ذهبت لا تسمع إلا : النورى ! النور ! استنور القوم ! ما أنورهم ! قبح النور من أجل النوَر ! وما إلى هذه الألفاظ والتعابير مما هدى القوم إليه الحقد والضغينة . وفعلت هذه الموجة الصاخبة فعلها فردتهم إلى نفوسهم ، ثم اكتسحتهم اكتساحاً ، فعادوا ينقبعون انقباعاً شديداً فى مسكنهم كمثل ما أُلجئوا إليه أول ما هبطوا البلدة . وشعروا بمرارة أليمة إذ رأوا كل ذلك البناء الذى بنوا ينهار عند كلمة واحدة (النور) ، وشعروا كذلك بحقد وكراهية بالغة — لأهل البلدة — بل لذلك الوالد الذى « أبى أن يكون إلا نورياً !! » وكم أخذوا يتمنون (بجدع أنوفهم) لو أنزلوا من صلب غير صلبه !

وجاءهم الفرج — بعد إذ غدت حياتهم لاتطاق حقاً — حينما جاءتهم طلبات من الحكومة للعمل فى بعض دوائرها . فأقبلوا بلا وِناء يستعدون للرحيل . وفى ليلة من ليالى كانون الكالحة أمسوا ولم يصبحوا

* * *

استأجر عبد الكريم وبنوه بيتاً أنيقاً كبيراً فى المدينة التى اختير الأبناء للعمل فيها ؛ وتنفسوا الصعداء بعد تلك المطاردة العنيفة التى طوردوها فى البلدة ، وشعروا بلذة الانطلاق بعد الانقباض ، وذاقوا حلاوة الاطمئنان بعد مرارة القلق . ولكنهم عادوا بعد حين يستشعرون شيئاً من الاضطراب الخفى والقلق المكتوم ؛ واستغربوا أول الأمر أن يعود إليهم القلق والاضطراب بعد نجاة وأمن ، ولكن لم يصعب عليهم أخيراً أن يتبينوا أسباب ذلك فقد شعروا أنهم ما يزالون تحت خطر المطاردة ، إذ ماذا يمنع أن يستطيل حقد أهل البلدة ويستمر فيرسلوا من يدل أهل المدينة الكبيرة على أصلهم الوضيع ونشأتهم الحقيرة ، فيكون الشىء الذى لا يطاق والتعاسة التى لا تحد . ومضى شهر ثم شهر ثم آخر وهم كالذى بين فكّى القضاء لا يدرى متى يطبقان عليه . ولكن بعد أن مضى هذا الزمن ولم يرد من البلدة نبأ يدل على أصلهم أو يحضر رسول سوء يكشف للملأ أمرهم ، عاد يتسرّب إليهم الاطمئنان من جديد ، وأيقنوا أنهم يسيئون الظن بأهل القرية أكثر من اللازم

ومضى حال العائلة رخيًّا خليًّا أمداً طويلاً . وقد استطاع الإخوة أن يدخروا من رواتبهم والرُّشى التى كانوا ينالونها على عادة موظفى ذلك الزمان شيئاً وفيراً من المال... وينظر الأب إلى هذا المال الكثير فيتنبه إلى أن بنيه يسرفون فى معيشتهم ، وأنّ عليه أن يحد من غرب أهوائهم وينهنه من شهواتهم ! وتهاجمه هذه الفكرة هجوماً هيناً أول الأمر ، ثم يعود هجوماً عنيفاً أشد العنف . ويتقدم أخيراً إلى بنيه وينبههم بمرارة وحدة إلى إسرافهم البليغ وتبذيرهم الشديد . ويستغرب الأبناء هذا المظهر الطارئ من أبيهم ويقولون : « مالك تركتنا نعيش كما نشاء والمال قليل بين أيدينا ، وتجىء الآن — وقد أسبغ الله علينا نعمه — تريد الحد من أسباب سعادتنا وتعكير صفونا ؟ ! إنه لشىء عجيب حقاً ! » ولكن الأب لا يصغى إلى حجتهم ويصر على محاسبتهم محاسبة دقيقة على ما يسرفون ويبذّرون . وأخذ يذكرهم أن له الحق المطلق فى تنظيم شؤون الصرف كما يرى ويقول : « أى شىء كنتم تكونون الآن لو آثرت الانتفاع بأتعابكم المبكرة وشغّلتكم فى البلدة ولم أرسلكم إلى مدرستها ؟ ! ثم أى شىء كنتم تصيرون إليه لو لم أترام على قدى المفتش بعد فشلكم الشنيع فيرق لى ويعيدكم إلى المدرسة بعد أن قرر طردكم ؟! أذكروا هذا وانظروا أى إثم تقترفون ؛ وأى فضل تنكرون أيها الأبناء العاقون إذ ترغبون أن تركبوا رؤوسكم وتمتطوا أهواءكم الجامحة كما تشاءون ! »

وقد كان يذعن البنون وينزلون عند هوى الأب لو جاءهم بهذا العزم مبكراً قبل أن تتمكن منهم عادات الاسراف وتتأصل فيهم ، ومن هنا يُفهمونه بصراحة أنهم لن ينزلوا عما اعتادوا أن يعيشوا من العيش الرغد ليجاروا هواه الغريب فى التقتير والتضييق عليهم . وهكذا يصرّ الأب من

جهته ويصر البنون ، فيدب الخصام ويستطيل الجدل والمشادة . وفى ثورة من ثوراته يصيح الأب : « صرتم ناساً يانور لا تستطيعون أن تعيشوا إلا كالحكام والولاة ، والله لأريتكم ! » ويجفل البنون عند كلمة « نور » وتتسع حدقات عيونهم وتشخص أبصارهم كمن تبين فجأة خطراً داهماً وشراً مستطيراً . ويلحظ الأب ذلك ويتنبه إلى هذا السلاح الحاسم تقوده إليه فجأة ثورة من ثورات الغضب ، فيعود يقول : « نعم ، نور وألف نور ؛ والله لأفضحنكم وأعيدنكم مهزأة فى أفواه الناس أجمعين ! إفعلوا ماتشاءون وتقدرون ، وسأفعل ما أستطيع يانور ! » (وهنا يرفع صوته بكلمة « نور » عالياً) ويخشى البنون أن تزداد ثورته فيقوم ينادى على الناس فى السابلة : تعالوا انظروا النور ، تعالوا أخبركم عن أصلنا الوضيع الحقير ، فيخرجون صامتين من لدنه وسيماء الكره الشديد والدهشة البالغة فى عيونهم وعلى وجوههم

وينادى محمود بعد صمت طويل وتفكير عنيف : « ماذا تريان ؟ ! إن كل ما بنينا يوشك أن ينهار على رؤوسنا . لماذا لا نفعل شيئاً ؟ هل نبقى كالحوت غرست فى جنبه حربة تصحبه حيثما توجه إلى أن تقضى عليه ؟! لماذا لا نزيل هذه الحربة المسمومة من جنوبنا ونحطمها ونرميها قصيًا ؟ ! » ويجيبه وصفى : « علينا أن نتخلص منه وإلى الشيطان مثل ذياك الأب اللعين ! » ويقول حسين : « ولكن كيف نستطيع الخلاص منه ؟ وماذا نصنع لننجو من عواقب ما تشيران إليه ؟ » ويجيب محمود : « الأمر هين . علينا أن ندعه ينتحر ! » ويضحك وصفى ضحكة صفراء ويقول متهكماً : « ولكن كيف نستطيع أن نفرض عليه هذه الرغبة فيقتل نفسه باختياره؟! » ويجيب محمود : « لا تعجل ياوصفى ! كل ما أعنيه هو أن يكون ظاهر الأمر انتحاراً وحسب . وعلى كل اتركانى أفكر فى الأمر مليًا ، وأعد للأمر خطة محكمة أعرضها عليكما غداً » ويقوم كل إلى فراشه منطوياً على شر ماتنطوى عليه نفس من نفوس البشر

* * *

أبدى الإخوة فى الأسابيع التالية تساهلاً شديداً مع الأب ، فدفعوا إليه بجميع ما لديهم من نقود وطلبوا إليه أن يجرى الاقتصاد والتدبير فى جميع نواحى عيشهم . ويدهشه أول الأمر هذا الانقلاب ينقلبه البنون من موقف العناد إلى موقف اللاينة ، ويفسره بأنه ـ لا شك ـ النتيجة المحتومة لما هددهم به من هتك سرهم والدلالة على أصلهم . ويشعر بنشوة الفوز فيمعن فى التدبير والتقتير ، وكلما لاحظ أن بنيه يهمون بكلام يقول : « يالله ! ماذا يصير إليه حالنا لو علم الناس حقيقة أمرنا والمخفى من شأننا ؟ ! إنه لشىء مرعب حقاً . ولكن الحمد لله إن أحداً إلى الآن لا يعرف من أمرنا شيئاً ! »

وفى يوم يتقدم حسين إلى أبيه ويقول : « إننا فى حاجة إلى حبل للغسيل فاشتره لنا يا أبت وحاول أن يكون من الجنس الجيد الرخيص »

ويسر الأب إذ يرى بنيه أصبحوا يفهمونه ويجارونه على خطته فى الاقتصاد ، فيعد حسيناً بأن يبتاع لهم أحسن الحبال وأرخصها ولو اقتضى الأمر أن يدور على جميع أسواق المدينة لا يترك منها واحداً .

ابتاع عبد الكريم البرجى الحبل بعد أن طاف على معظم أسواق المدينة ينشد الرخص والجودة معاً .

وفى صباح اليوم التالى لشتراه الحبل سمع الجيران صياحاً وولولة فأهرعوا ينظرون ماذا أصاب عائلة البرجى فى ذلك الصباح ويدخلون فيرون صفية والاخوان الثلاثة يبكون ويعولون أشد البكاء والعويل، ويسألون : ماذا دهاهم وأى خطب أصابهم؟ وتشير الزوجة بأصابعها إلى غرفة نوم زوجها ، فيطل الجيران وإذا عبد الكريم معلق من رقبته فى حديد النافذة وعيناه جاحظتان ولسانه مدلى على صدره مقدار شبر . ويروعهم المنظر ، فيجفلون ويقبلون على صفية وأبنائها يسألونهم : كيف كان ذلك ومن صنعه ! ؟ وتجيب صفية : « لا أدرى ! لا أدرى . كل ما أعرفه أن عبد الكريم ابتاع البارحة حبلا قال لى إننا نحتاجه وجئت غرفته هذا الصباح لأوقظه فوجدته معلقاً كما ترون » أما الاخوان فكانوا يمثلون دور الذين عقد الحزن ألسنتهم فلم يجيبوا عن استفسار الناس بشىء

ولم يمض وقت طويل حتى أبلغ قائد الدرك نبأ الحادث ، فحضر إلى بيت عبد الكريم بصحبته المدعى العام . وشرع المدعى العام — بعد أن عاين الجثة — يُجرى تحقيقاً دقيقاً ، فتوجه إلى الزوجة أولاً وسألها عدة أسئلة ، فتبين من أجوبتها ولهجة حديثها ومظاهر الحزن الأكيد فى وجهها أنها لاتعرف من المأساة سوى فصلها الأخير . فتركها وباشر التحقيق مع البنين ، فكانت أجوبتهم جد متقاربة ، وتشير إشارة واضحة إلى أنهم لايتهمون أحداً وإلى ترجيحهم أن أباهم مات منتحراً . ولما سألهم المدعى العام ماذا يظنون الدافع لانتحار أبيهم ، كادوا يتلعثمون لولا أن محموداً قال : « يُخيل إلى أن والدى كان فى المدة الأخيرة يتملكه شىء من السوداء والحزن المبهم ، فكنت أسأله ماذا به ولم أراه واجماً ، فكان يجيب : لاشىء ! لاشىء ، وتنبسط أساريره ويزول وجومه كأنه يحاذر أن يطلع أحد على دخيلة أمره . وكنت أسأل والدتى — بحكم نفوذ المرأة إلى أسرار الرجل — هل ترى سبباً لهذه السوداء والوجوم يتملكانه أحياناً ، فتجيب بأنها لاتعلم من أمر ذلك شيئاً »

ويجىء الطبيب ، فيرى أن تنزل الجثة ليفحصها ويرى هل فى الحادث جناية مدبرة أم هو انتحار وحسب . ولكن المدعى العام يطلب اليه أن يتريث قليلاً ، ويطلب إخراج الاخوة ، فيخرجون . وعندها ينصب الكرسى الذى كان مطروحاً تحت رجلى عبد الكريم ، فيلاحظ أن الكرسى لايصل إلى قدميه بل يظل بينه وبينهما خلاء بمقدار شبر . وعندها يلتفت إلى الطبيب وقائد الدرك ويقول : « حتما هذا الكرسى وضع هنا للتعمية ولم يستعمله الرجل فى انتحاره قط ، إن يكن مات منتحراً . وعلى كل دعونا ننزل الجثة الآن فقد يكشف لنا الفحص الطبى أفى المسألة جناية أم هى انتحار وحسب » وتنزل الجثة ويلاحظ المدعى العام أن على الحبل آثار احتكاك حوالى المحل الذى رُبط منه بحديد النافذة ، فيضيف هذه الملاحظة إلى ملاحظته على الكرسى . ويشرع الطبيب فى فحص الجثة ، فيقرر بعد الفحص الدقيق أن ليس ثمّت أثر لاستعمال العنف ، وأن فقرات العنق محلولة مما يدل على أن الجسم ضغط إلى أدنى بعد إذ كان معتمداً على شىء . إلا أن المدعى العام ينبهه إلى أن حول العنق دائرتين من أثر ضغط الحبل عليه ، ويسأله كيف يعلله ؛ ولكن الطبيب لا يهتدى إلى تعليل

مقبول . ويضيف المدعى العام إلى ملاحظتيه الأوليين هذه الملاحظة الثالثة عن أثر الحبل حول العنق

ويطلب المدعى العام الإخوة ، فيحضرون ، ويعتذر إليهم عن ربكهم بالأسئلة فى وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى بواعث التعزية . ويسمح لهم بدفن أبيهم إذ لم ير وجهاً لموته غير الانتحار

يدفن الاخوة أباهم ويعودون من المقبرة . وفيما هم سائرون والناس وراءهم وأمامهم اغتنم محمود عطفة فى أحد الشوارع والتفت إلى أخيه وصفى ، وقال بصوت خفيض : « لقد دفنا الماضى البغيض ! » ولم تفت العبارة أذنين كانتا تسيران خلسة وراءهم لتلتقطا مثل هذه العبارة أو غيرها

ويزداد المدعى العام يقيناً — بعد أن سمع ما سمع — بما أخذ يكوّنه لنفسه من نظرية حول موت البرجى فيقول : إن هذه العبارة التى همس بها أحد الاخوان تدل دلالة واضحة على أن الإخوة لم يمازج نفوسهم قط شىء من الحزن لموت أبيهم ، بل هى تشير إلى مبلغ ارتياحهم وسرورهم لموت أبيهم . وليس بالقليل أبداً أن ينسيهم شعور الانفراج بموت هذا الأب واجب الحيطة اللازمة فيناجى بعضهم بعضاً بمثل ما سمعت . أما مظهر الحزن الذى يتكلفه الاخوان الآن تساعدهم عليه طبيعتهم الصفراوية وملامحهم المبهمة المكتومة ، فهو دور يمثلونه ويتقنون تمثيله ، ولكن الذى يحيرنى بعض الحيرة هذا « الماضى البغيض » الذى يشيرون إليه ، ولعلى إذا أرسلت من أعتمد إليه إلى البلدة التى جاءونا منها يتحرى عن جلية أمرهم ، أستطيع أن ألقى نوراً جديداً على موت البرجى بما سأقف عليه من ماضى الرجل وبنيه

* * *

بعد شهرين كاملين من هذه الحوادث بكر الناس فى صباح أحد الأيام بالنهوض والذهاب إلى قاعة المحكمة ليتسنى لهم أن يحجزوا فيها مقاعد لهم ويشهدوا محاكمة أبناء البرجى بتهمة قتلهم أباهم كما سيثبت ذلك المدعى العام فى هذه الجلسة الختامية

وحوالى الساعة العاشرة جاء جنديان مسلحان يسوقان أبناء البرجى ويدخلانهم قفص الاتهام ؛ وبعد أن تمت الاجراءات اللازمة وقف المدعى العام وألقى بصوت هادىء رصين مرافعته التالية :

حضرات القضاة المحترمين : لا أريد أن أطيل الشرح ولا أكثر التحليل وإنما أكتفى بعرض موجز للحقائق التى بنيت عليها نظريتى فى الاتهام ، وهى أن وفاة البرجى لم تكن نتيجة للانتحار كما دلت على ذلك ظواهر الأمر ، وإنما كانت الوفاة بأيدى جناة آثمين هم هؤلاء البنون الماثلون أمامكم ، إن جاز فى عرف المبادىء النبيلة والغايات الشريفة أن ندعوهم أبناء ، ولو كان الصخر ينبت بنات وبنين لقلت إن هؤلاء الذين لا أستطيع أن أدعوهم بنين إلا تجوزاً نشأوا من الصخر الجلمد والحجر الأصم

إن أول ما ينهى إلى أن الحادث لم يكن انتحاراً الكرسى الذى وجدناه مطروحاً تحت رجلى القتيل . فقد بدا لي أن أقفه تحت رجليه لأرى أتطوله رجلا الجثة أم يبقى بينه وبينها فراغ ، كما تبادر إلي ؛ وقد صدق حدسى لما نصبت الكرسى وظل بين أعلاه وقدمى القتيل مقدار شبر من الفضاء

وهنا أدركت أن من المستحيل أن يكون الرجل علق نفسه بحديد النافذة ثم ركل الكرسى ، بعد أن صعد عليه ، ليسقط جسمه ويشد الحبل على عنقه ويزهق أنفاسه . وإنما المعقول أن يكون الرجل خنق بالحبل على الأرض ثم علق بعدها وطرح الكرسى بين رجليه لايهام المحققين والإلقاء فى روعهم أن الموت كان انتحاراً وحسب ، ولكن فات الجناة أن يتقنوا أسباب التعمية هنا ، فنم الكرسى عليهم

ثم أنزلنا الجثة وتقدم الطبيب ليفحصها ، وقرر الطبيب أن فقرات العنق محلولة مما يدل على سقوط الجثة إلى أسفل ، كما قرر أنه لا تكاد تبدو آثار من استعمال العنف على الجثة ، مما جعله يميل إلى نظرية الموت انتحاراً لا قتلا

بيد أن تقرير الطبيب وترجيحه الوفاة انتحاراً لا قتلاً لم يفت فى عضدى بل كان مساعداً لى على تصوير الجرم تصويراً خيالياً ، ثم وجدت بعدئذ من الحقائق ما يبرر لى هذا التصوير : تصورت أن البنين — لسبب من الأسباب — أرادوا قتل أبيهم فجاءوا بالحبل ودخلوا عليه ليلاً فألفوه نائماً وعندها وضعوا أنشوطة في الحبل وأدخلوا رأس أبيهم فيها وأمسك واحد من الاخوة بطرف من الحبل وآخر بالطرف الآخر ثم تجاذبا الحبل بينهما بقوة وسرعة ففاضت روح المسكين دون أن يبدى مقاومة ، يساعد على ذلك استغراقه فى النوم وشيخوخته . وبعد أن أتم الجناة ما جنوا رفعوا الجثة وعلقوها بحديد النافذة ليوهموا الناس أن أباهم مات منتحراً

هذه الصورة التى صورتها لنفسى عن كيفية وقوع الجرم حاولت أن أدعمها بالحقائق ، وأول ما جاءنى من الحقائق دليلا على صدق الصورة الدائرتان من أثر الحبل حول عنق القتيل . فالدائرة السفلى هي بلا ريب أثر الحبل إذ شد على عنق الرجل وهو نائم والدائرة العليا هى أثر الحبل بعد أن علق فى حديد النافذة ، وقد نبهنى إلى دلالة الدائرتين من أثر الحبل حول عنق الرجل الاحتكاك الذى رأيته في الحبل قريباً من مكان تعليقه بحديد النافذة ، إذ خيل إلى أن هذا الاحتكاك ناجم من إدخال طرفى الحبل في فجوة من فجوات حديد النافذة وسحبهما من الجهة الخلفية إلى أسفل لرفع الجثة على نحو ما ترفع الأجسام بالبكرات . فقد قلت لاريب أن الرجل مات مخنوقاً قبل أن يعلق ، والأرجح بل الأكيد أن يختلف وضع الحبل حول عنق الجثة وهى ملقاة أفقياً ثم وهى معلقة عمودياً ، وعليه طلبت أن يخرج الحبل من عنق الرجل ونظرت فاذا أثران : الأول مخفي تحت زيق القميص ، والثانى مكان الحبل إذ شد على عنق الرجل بعد التعليق

وأحببت أن أعلم من جاء بالحبل الذى علق به الرجل ، فسألت الإخوان فأجاب كلهم بأن أباهم ابتاعه كأنهم بذلك يتسارعون إلى إبعاد التهمة عنهم ولكن لم أقتنع بكلامهم ورحت أسأل التجار فى السوق هل ابتاع البرجى حبلا قبل أن تحدث له الوفاة فكان جميعهم يجيب بأن البرجى جاء حقاً يطلب حبلا . وقد أخبرونى جميعاً كذلك بأنه كان فى حالة نفسية جيدة وأنه جادلهم طويلا وماكسهم فى الثمن كثيراً فاستغربت ما ذكروه من مظهر حرص الرجل وقلت : هل يعقل أن يكون المرء حريصاً مثل هذا الحرص وهو قادم على الانتحار وتطليق الحياة بخيرها وشرها ؟ ثم ألا يجوز أن الأب حمل اختياراً على شراء الحبل — حمله على ذلك أحد

بنيه حتى يُعلم فى السوق أن الرجل أعد وسائل الانتحار بيده ؟ دارت فى نفسى هذه الخواطر ، ففكرت فى سؤال الإخوة من جديد لعلى أستدرجهم إلى معرفة من أوحى بمشترى الحبل . ولكننى عدلت عن هذا الرأى لأننى رأيت الإخوة — بعد أن رأوا الشبهة تتجه نحوهم — يمعنون فى الحذر والحيطة بحيث لم يعد فى الامكان استدراجهم . ولكننى لم أيأس ، فقد تلطفت بخادم المنزل ، فأخبرتني بأن حسيناً هو الذى طلب إلى والده مشترى الحبل ، وقالت انها علمت ذلك من عبد الكريم نفسه فقد استغربت لماذا اشترى الحبل ولديهم حبال كثيرة ، فأجابها بأن ابنه حسين هو الذى طلب إليه شراء الحبل لحاجة البيت إليه . وزادت الخادم أن نقاشاً حاداً كان يقع بين عبد الكريم وبنيه ، ولكن ذلك النقاش هدأ فجأة كما بدأ فجأة ، وساد البيت بعده مظهر قوى من الاقتصاد والتقتير . وهنا سألت الفتاة : هل تذكر شيئاً مما كان يدور بين الأب والبنين عند ما كان ينجم الجدل والمشادة ، فأجابت بأنها كانت تخشى أن تدنو من الأبواب والنوافذ حينما كانوا يتناقشون ، ولا سيما أن بعض الإخوان كان يخرج الحين بعد الحين يستوثق أن أحداً لا يسترق السمع أو يصغى لما يتجادلون ؛ ولكنها برغم ذلك استطاعت أن تسمع الأب مرة أو مرتين يردد بصوت عال كلمة « نور » فكان الأبناء يستكينون جد الاستكانة ويفكرون عند سماعها . وأخيراً سألت الخادم : هل لاحظت على عبدالكريم قبل أن يقدم على الانتحار شيئاً من الحزن والسوداء ؟ فأجابت بأنها لا تعرف ماذا أعنى بالسوداء ففسرتها لها ، وعندها قالت : إنها لم تلحظ شيئاً من ذلك ، بل كأنما لاحظت أن الرجل زاد قوة وانشراحاً ، ولا سيما بعد أن انقطعت المشادة بينه وبين بنيه

بعد أن أصغيت ما أصغيت الى ثرثرة الخادم دون أن تدرك خطورة ما أفضت به إلي قلت : هذه أدلة جديدة تزيدنى يقيناً بأن البرجى راح ضحية العقوق ولؤم البنوّة . فالحبل لم يشتره المسكين لينتحر إذن ، وإنما أوحى بنوه إليه بشرائه زيادة فى الاحتياط ، فيقول الناس والمحققون ان الرجل ابتاع أسباب الموت والفناء بيده . كذلك أدركت ان ما قاله لي محمود فى بدء التحقيق من استيلاء السوداء والشذوذ على أبيه قبيل الحادث واعتقاده ان لذلك علاقة بانتحاره لم يكن إلا أكذوبة ارتجلها فى غير تفكير ليتخلص من حراجة الموقف حينما أعجلته بالسؤال هو وأخويه عن أسباب انتحار أبيهم . أما ما كان يتردد على لسان الأب وقت المشادة من لفظ « النور » فلم أحمله أول الأمر محملاً خاصاً ، وقلت : هي عادة الشرقيين من الاسفاف فى الخصومة وتوزيع النعوت والألقاب فى غير قصد ولا اعتدال . ولكنني عدت ونظرت إلى هذا اللفظ يتردد في الخصومة بين الأب والأبناء نظراً جديداً لما جاءنى من انتدبته للبحث عن ماضى القوم فى البلدة التى جاءوا منها بأن القوم يعتون مباشرة إلى النور ، وانهم قوطعوا من جراء ذلك مقاطعة شديدة أول ماحلوا البلدة ، ثم طوردوا مطاردة عنيفة — لأمور طارئة — بلفظ « النور » حتى اضطروا أن يرحلوا بليل

بعد هذا عدت إلى ترتيب الحقائق ترتيباً

جديداً بعض الجدة ، فقلت : لا ريب أن الأب كان يهدد بنيه بكشف ماضيهم وانتسابهم إلى ذلك الجنس الوضيع (النور) ، إذا لم يرعووا وينزلوا على مشيئته فيما شجر عليه الخلاف ودبت الخصومة ، فاضطروا أخيراً ، اجتناباً للفضيحة واختياراً لأهون الشرين ، أن يذعنوا بعد أن يبتوا له شراً كبيراً . وقد ذكرت لى الفتاة الخادم أن الخصومة هدأت وتبعها فوراً تقتير واقتصاد شديدان ، وهذا بلا ريب ما كان يريده الأب ونجم عنه الشجار الذى انتهى حينما أذعن البنون . وسارت شؤون الدار على هوى الأب لا على هوى البنين . وقد يبدو مظهر الاقتصاد والتقتير المفاجئ فى الأب شيئاً غريباً ، ولكننى أقرر هنا أنها حالة نفسية مشهودة شهوداً عاماً ، فكأن رؤية المال يربو ويزداد — ولاسيما عند من يثرون بعد مترية — تزيد الناس حرصاً عليه ورغبة فيه ... أقول : اختار الأبناء أن يذعنوا من جهة ، ولكنهم — من جهة ثانية بيتوا للأب شراً مستطيراً ، فكانت حكاية الانتحار وأخيراً حقيقة الجناية ...

وعند هذا الحد من مرافعة المدعى العام تسمع حركة سقوط فى قفص الاتهام ، فيلتفت المشاهدون ويلتفت القضاة فيرون حسيناً ملقى على الأرض وقد أخذته غشية ، ويبادرون إلى إسعافه ، وحالما يفيق يستأنف المدعى العام مرافعته ويقول : قد رأيتم ياحضرات القضاة المحترمين كيف انهار أحد المتهمين بعد أن لم تقو أعصابه على التماسك فى وجه الحقائق الصارخة بأنهم القتلة المجرمون . ثم انظروا كيف غدت عبرة الموت وقترة الفناء تعلوان وجهى الأخوين الآخرين !

ويختم المدعى العام مرافعته بطلب الحكم الصارم على الإخوة الثلاثة إذ يقول : إننى أطلب من المحكمة الموقرة ، بعد أن عرضت عليها عرضاً واضحاً عناصر الجريمة وجميع ملابساتها — أن تحكم على هؤلاء الإخوة الثلاثة كقتلة سفاحين انحدروا إلى أقصى دركات الوحشية وألأم صفات الاجرام والاثم ؛ إذ من تمتد يده إلى شعلة الحياة فى صدر الأبوة تعبث بها وتطفئها إلا من أعطى نفس خنزير أو أدنى من نفس خنزير !!؟

ويوجه رئيس المحكمة الكلام إلى الإخوة ويقول : أنصحكم — بعد أن وضحت معالم الجريمة — بالاعتراف فذلك أولى لكم وأجلب لاستمالة الرأفة بكم

ويقف الرئيس عند عبارته الأخيرة ينتظر جواباً فلا يتكلم أحد . فيعيد الكلام ويسأل : ماذا تقولون ؟ أتصرون على الانكار ؟ وعندها يرفع حسين صوته ويقول منتبحاً فى رنة تكسرها الذلة ويقطعها الحزن : نعم ، نعم ، نحن القتلة ، نحن المجرمون !! ولا يستطيع محمود ووصفى بعد إقرار أخيهما أن يصرا على الانكار فيعترفان

واختلى القضاة يتداولون بينهم أمر الحكم ، وشخصت الأبصار نحو الإخوة الثلاثة وفيها من المعانى والعواطف المتباينة ما أتى على البقية الباقية من ثباتهم وتماسكهم ، فيلتفت حسين إلى أخويه ويقول بصوت باك ورنة متحطمة :

— أنظرا ! قريباً سنتخلص من جميع ذلك الماضى البغيض !!

أديب عباسى